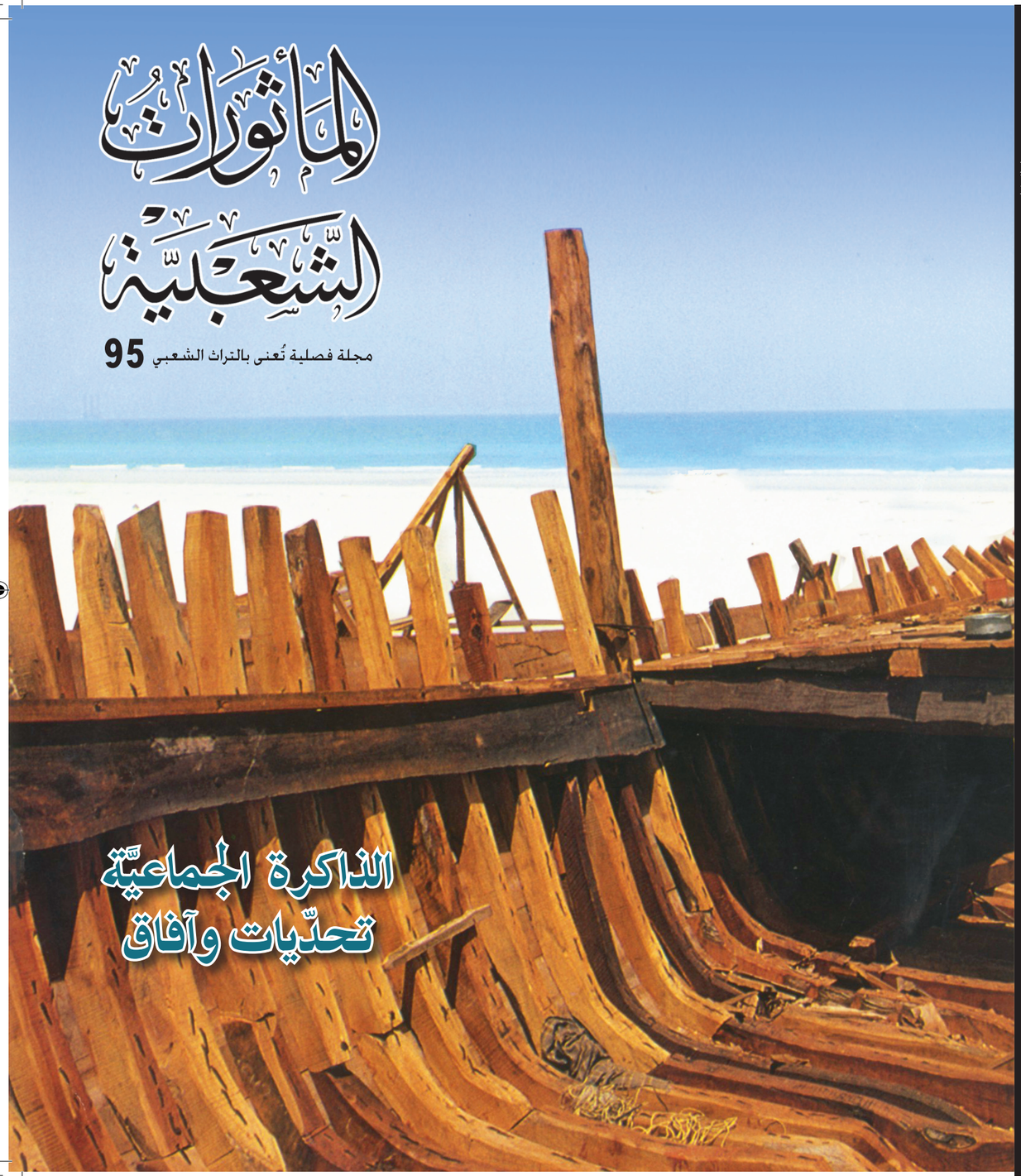

المأثورات الشعبية

مجلة فصلية تُعنى بالتراث الشعبي 95

الذاكرة الجماعيّة
تحدّيات وآفاق

95
المأثورات الشعبية
السنة (25) · العدد (95) يوليو 2016 م
Alma'thurat Alsha'biyyah - vol (25) No. (95) - July 2016

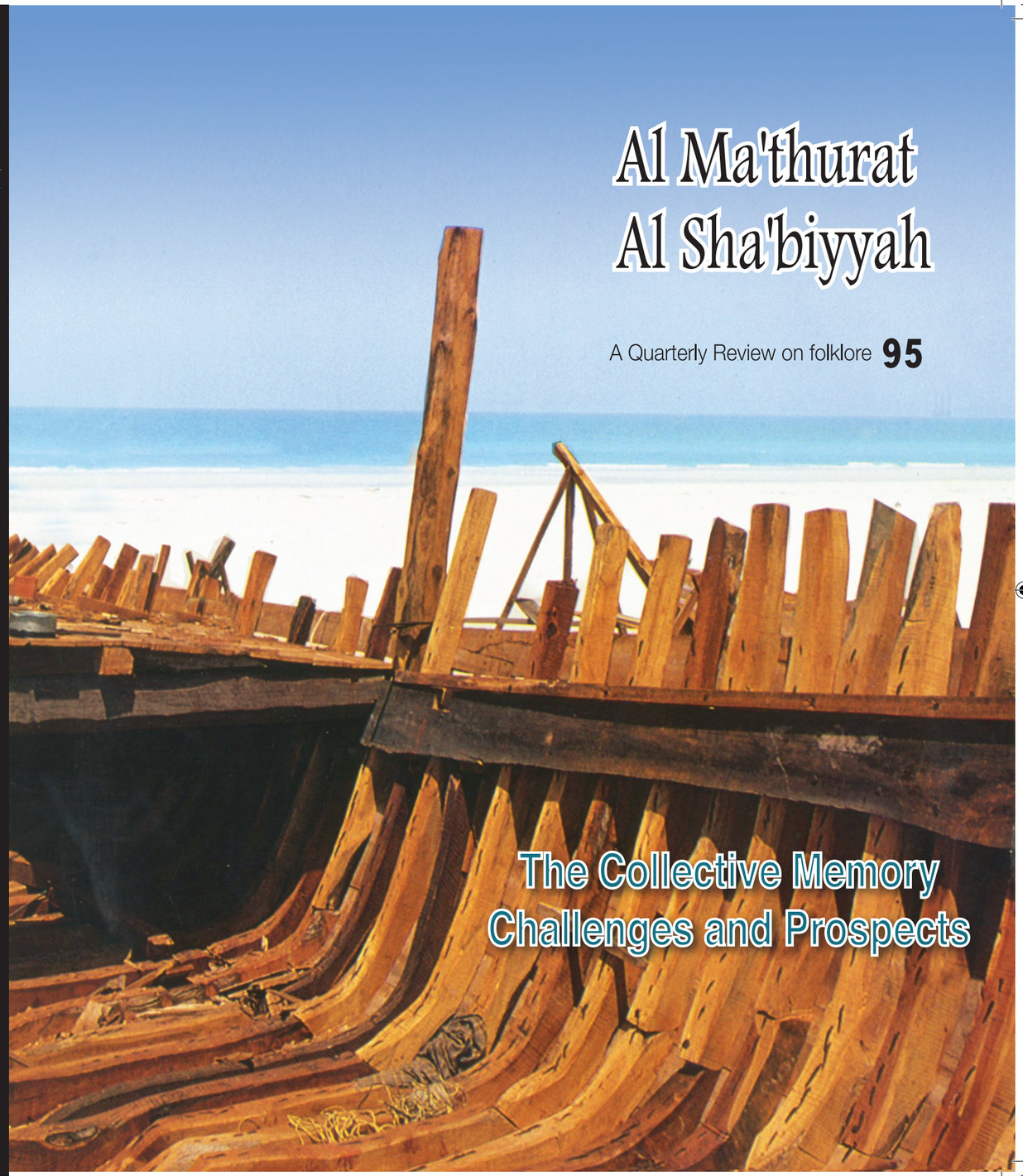

Al Ma'thurat Al Sha'biyyah

A Quarterly Review on folklore 95

The Collective Memory
Challenges and Prospects

الماثورات الشعبية
Al Ma'thurat Al Sha'biyyah
أبحاث ودراسات
فصلية علمية متخصصة

ابن بطّوطة
الطوّاف في الآفاق باحثًا عن الناس

كلاوديا ماريا تريسو

أستاذة اللغة العربية
جامعة تورينو
(إيطاليا)

"فقد بلغت- بحمد الله- مرادي في الدنيا؛ وهو السياحة في الأرض، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري، فيما أعلمه، وبقيت الأخرى، والرجا قويّ في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنّة".

(محمد بن بطّوطة)[1]

■■ تمهيد

أهمّيّة أدب الرحلات (رحلة ابن بطّوطة خاصّة) في مجال دراسة المأثورات الشعبية العربية

"إن التاريخ معلِّم الحياة" (Historia magistra vitae)، هكذا قال شيشرون، الكاتب الروماني وخطيب روما الشهير، في كتابته "عن الخطيب" [2] De Oratore"، التي كتبها في القرن الثاني الميلادي، ولا تزال هذه الكلمات قادرة على وصف شعور الإنسان، حتى أننا نكرِّرها ونتداولها في أيامنا هذه.

وعلى الرغم من هذا، فلا تهتمّ أغلب كتابات المؤرِّخين، في القرون الوسطى، إلَّا بالأمور الرسمية الخاصّة بجزء قليل من السكّان؛ أي الحكّام وأصحاب السلطة السياسية، والسلطة الدينية، والسلطة الاقتصادية، حيث قليلًا ما يتحدَّث المؤرِّخون عن الحياة اليومية لعامّة الناس، الذين لم يشاركوا في الحكومة، ولم يملكوا أيّ نوع من السلطة، بل هم مضطرّون إلى الطاعة والخضوع ■

وإن كان يوجد، في أعمال المؤرِّخين، معلومات عدّة عن تواريخ الأحداث السياسية المهمّة، عن الحروب والأمراء، والأمصار وأشكال الحكومة، فلا يوجد فيها معلومات كثيرة عن الحياة اليومية، سواء في المدن المهمّة وفي القرى الريفية. وإن أخبرنا المؤرِّخون عن المؤسّسات الرسمية الكبرى، مثل قصور الحكّام وحاشيتهم، والبنى الإدارية، والأسواق الدُولية، والمحاكم، والمدارس، والمراكز الدينية، والمستشفيات... إلخ، فإنهم لا يعطوننا أخبارًا كثيرة عن المؤسّسات غير الرسمية والشعبية، مثل الأسواق المحلّيّة، والركوب والقوافل الصغيرة المنظمة لأهداف مختلفة، والعمليَّات التجارية خارج المتاجر والدكاكين، وأساليب الشفاء التقليدية، والعادات العرفية، والحفلات الشعبية... إلخ؛ لذلك، نحن لا نعرف من هذه الأعمال كيف كان الناس يولدون، ويأكلون، ويحبّون، ويعانون، ويُسَرّون، ويعيشون، ويموتون، يومًا بعد يوم، في ظلّ التاريخ الرسمي.

وإذا أخذنا في الحسبان، وبطريقة مماثلة، أعمال الأدباء، فإنه لدينا، اليوم، عدد من النصوص السردية المكتوبة وفقًا لقواعد النحو واللّغة، لكننا لا نعرف إلّا قلّة قليلة من عددٍ لا حَدّ له من النصوص السردية الشفوية والشعبية، مثل الخرافات والأساطير والأغاني والأهازيج والأمثال، حيث انتقل كثير من هذه النصوص من فمٍ إلى أذن، حتى طارت بعيدًا على أجنحة الريح، ويسمّى كلّ هذا بـ "التراث الثقافي غير المادّي".

وإذا أردنا استعادة هذا التراث غير المادّي للبشرية، فلا بدّ من أن نبحث في النصوص التاريخية، والنصوص الأدبية، عن كلّ وجه من وجوه الحياة، لأننا في حاجة إلى معرفة أسلوب الحياة اليومية، والحركات والكلمات والعبارات المتكرّرة آلاف المرات، والمنقولة من جيل إلى جيل، في ظلّ الأحداث الكبيرة التي غيَّرت مصير السلالات الحاكمة أكثر ممَّا غيَّرت في حياة أغلب الناس.

ولا شكّ في أن نصوص أدب الرحلات العربي، في العصور الوسطى، هي من أغنى المصادر التي يمكننا الأخذ منها لمعرفة الأخبار المذكورة فيما سبق، التي تُعَدّ "هامشية"، بالمقارنة مع التاريخ الرسمي. وفي إطار هذا الأدب، لا شكَّ في أن كتاب ابن بطّوطة "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، المعروف بـ "رحلة ابن بطّوطة"، هو كنز لا ينفد من المعلومات المتنوِّعة والمختلفة عن كلّ مظهر من مظاهر الحياة، حيث يمكننا القول إن هذا الكتاب، المعروف في كلّ بلد من بلدان العرب، والمترجم إلى لغات عدّة [3]، يمثِّل، الآن، جزءًا من التراث الثقافي غير المادّي العالمي. وفي الواقع، كان ابن بطّوطة يهتمّ كلّ الاهتمام بإعطاء القارئ المعلومات المتعلِّقة بالتاريخ الرسمي، حيث لا يزال الباحثون، من العرب كانوا أو من المستشرقين العجم، يستخدمون رحلته ليدرسوا، ويعرفوا تاريخ أراضي دار الإسلام في القرون الوسطى، من المغرب إلى الصين، ومن منطقة البلغار إلى القارّة الهندية. وجدير بالذكر أن كثيرًا من الأخبار الموجودة في رحلة ابن بطّوطة هي أوَّل سجلّ مكتوب عمّا يتعلَّق ببعض مناطق العالم، مثل سلطانة دهلي، وجزر المالديف، وبلدان النيجر، كما يقدِّم فيها الرّحالة تقريرًا دقيقًا عن الوضع السياسي في شبه جزيرة الأناضول، في الوقت الذي أخذ فيه الأتراك العثمانيون يفرضون سيطرتهم عليها.

لكن، بالإضافة إلى ذلك، يوجد في رحلة ابن بطّوطة عدد كبير من الأخبار المتعلِّقة بالحياة اليومية للناس الذين التقى بهم خلال أسفاره الطويلة، وهو إن عاشرَ الأقوياء والأغنياء والمثقَّفين أكثر ممَّا عاشر الضعفاء والفقراء والجهلاء [4]، فلا بدّ أنه كان يهتمّ اهتمامًا كبيرًا بالأشخاص، حيث كثيرًا ما ينتابه الفضول لمعرفة الملابس والطعام والأمثال والخرافات مثلما يهتمّ بالأحداث التاريخية الكبرى، أو- ربَّما- أكثر.

وهدفي، في ورقتي هذه، أن أقدِّم للقارئ الأهمّية العميقة التي أعطى ابن بطّوطة للبشر، ويمكن أن نقول إنه سافر "باحثًا عن (معرفة) الناس"، عن كلّ الناس: حتى عن

النساء والأطفال الذين كان أغلب المؤرِّخين والأدباء يعدّونهم شخصيّات ثانوية، تمامًا، في ذلك الوقت.

وسنرى أن خصوصيّات "رحلة ابن بطّوطة" تجعلها عملًا أساسيًا في دراسة المأثورات الشعبية، التي هي تاريخ موازٍ للتاريخ الرسمي للشعوب، أو- بالأحرى- هي تاريخ الشعوب والحياة فى مواجهة التاريخ الرسميّ، يمكن للقارئ، بواسطتها، فهم فترات تاريخية مهمّة، ليس بالنسبة إلى السياسة والاقتصاد فحسب، بل بالنسبة إلى البشر وأسلوب حياتهم، في مختلف مراحلها ومواقفها.

رحلات ابن بطّوطة ورحلته الأدبية

في يوم 14 يونيو، من سنة 725هـ/1325م[5]، يخرج من مدينة طنجة المغربية شابّ من أبنائها ممتطيًا صهوة جواده. هو في ربيعه الـ 21، ويقصد الديار المقدَّسة الحجازية لتأدية مناسك الحجّ في مكّة المكرَّمة، ويزور قبر الرسول في المدينة المنورة. اسمه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطّوطة اللواتي[6] الطنجي، المعروف بابن بطّوطة[7]، بربري الأصل، ينحدر من عائلة مشهورة باشتغالها في القضاء[8].

يخرج من طنجة، وليس بمعيّته أحد، كما هو وارد في النصّ بالكلمات الآتية: "كان خروجي من طنجة مسقط رأسي (...) منفردًا عن رفيق آنَس بصحبته، وركْب أكون في جملته (...)، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والداي بقيد الحياة، فتحمَّلت لبعدهما وَصَبًا، ولقيت، كما لقيا، نَصَبًا"[9].

يخرج من طنجة، وفي حوزته دنانير قليلة؛ لأنه معتمد على شبكة المؤسَّسات الإسلامية التي تقدِّم المساعدات لأبناء السبيل[10].

يخرج من طنجة، ومثل كثيرين آخرين في زمانه، يترك مسقط رأسه ساعيًا وراء رجال ونساء[11] الدين والفقه الإسلامي الذين من شأنهم أن يمكِّنوه من اكتشاف مهارات جديدة وكسبها، تساعده على مزاولة مهنة القضاء على أحسن وجه. يخرج، كذلك، للبحث عن كلّ عالِم (أو عالِمة) دين كفْء، يتتلمذ على يديه من أجل اكتساب خبرات جديدة وإثراء المعلومات العامّة أو التي تتعلَّق بأسُس الدين الإسلامي وتعاليمه. لم يكن في حسبان ابن بطّوطة أن رحلته ستطول جدًا، حيث إنها امتدّت إلى قرابة خمسة عقود قبل تاريخ عودته إلى بيته. وفي الواقع، إن حبّه للترحال والتجوال، وتطلُّعه لمعرفة المجتمعات والشعوب الأخرى، وفضوله الفريد لاكتشاف أماكن جديدة... كلّ ذلك جعله يتابع مسيرته إلى ما وراء شبه الجزيرة العربية، متحمِّسًا ومواصلًا سفره، أكثر فأكثر، داخل، و- أحيانًا- خارج نطاق الحدود الواسعة لدار الإسلام، في القرون الوسطى.

وجدير بالملاحظة أنه، بعد مضيّ عشرة أشهر من خروجه من طنجة، وقد بلغ دولة مصر المملوكية التي كانت، آنذاك، القلب النابض للحضارة الإسلامية ونقطة ارتكاز في العلاقات بين بلدان البحر المتوسِّط وبلدان آسيا، يشعر ابن بطّوطة بأنه مقدَّر عليه السفر، حيث إنه، خلال زيارته لمدينة الإسكندرية، يتنبّأ له الشيخ الإمام برهان الدين الأعرج بأنه (يعني ابن بطّوطة) سيسافر إلى الهند والسند والصين[12]، وبعد وقت قليل، خلال إقامته في زاوية غير بعيدة عن الإسكندرية، ها هو شيخ الزاوية يفسِّر له حلمًا، ويتنبّأ له ببعض الأحداث التي ستحدث له، بالفعل، في بلاد الهند[13].

كان الهدف الأوَّل لابن بطّوطة- كما قلنا سابقًا- الديار المقدَّسة، غير أن عددًا من الصعوبات حالت دون وصوله إلى منطقة الحجاز، مباشرةً، من الساحل المصري للبحر الأحمر؛ الشيء الذي جعله يتوقف عن متابعة السير نحوها، لفترة معيَّنة، مغتنمًا فرصة توقُّفه المؤقَّت، ليقوم بزيارة فلسطين وسوريا اللتين كانتا، آنذاك، تحت حكم المماليك، مثلما كانت مصر.

إبّان زيارته لمدينة دمشق السورية، ينضمّ ابن بطّوطة

إلى قافلة الحجّاج المتَّجهة إلى مكّة. وأخيرًا، يصل- لأوَّل مَرّة في حياته- إلى الديار المقدَّسة، في شهر نوفمبر من سنة 1326م، ويؤدّي فريضة الحجّ، للمرَّة الأولى.

بعد الانتهاء من الشعائر، بدلًا من العودة إلى الغرب ينتقل صوب الشمال الشرقي، حيث يزور العراق التي لم تكن قد استعادت قواها بعد غزوات المغول في القرن الثالث عشر، كما يزور بلاد فارس التي كانت تعيش فترة ازدهار، تحت قيادة السلالة الإيلخانية، هذه السلالة المغولية التي اعتنقت الدين الإسلامي محتفظةً، في الآونة نفسها، ببعض العادات والتقاليد الفارسية.

في شهر سبتمبر من سنة 1327م، يعود ابن بطّوطة إلى مكّة. وبحسب ما يرد في الرحلة، يُمضي في المدينة المكرَّمة ثلاث سنوات [14] وهو مكرِّس معظم وقته للعبادة والدراسة.

بعدها، يتَّجه نحو مدينة جَدّة عن طريق البحر الأحمر، ويقوم بزيارة دولة اليمن التي كانت تعرف فترة انحطاط، منذ زمن طويل، ثم يقصد القارّة الإفريقية، ويزور ساحلها الشرقي (يعني الصومال، وكينيا وتنزانيا الحاليّة) الذي كان، آنذاك، في أوج ازدهاره؛ بفضل تجارة الذهب، والعاج، والعبيد [15]. من هنا، يتوجَّه نحو عُمان والخليج العربي ليعود، مرَّةً أخرى، إلى مكّة حيث يُنهي، سنة 1332م، حجّته الثالثة، ثم يغادر المدينة المكرَّمة ليخوض في رحلة أخرى أطول من نظيرتها الأولى: يسافر إلى القاهرة مع قافلة من البدو، ثم يقصد سوريا مع صديقه الحاجّ عبدالله بن أبي بكر بن الفرحان التوزري، وفي ميناء مدينة اللاذقية يصعد معه على متن سفينة تجارية، من مدينة جنوة الإيطالية، عازمًا على الوصول إلى بلاد الأناضول، يعني الأرض التي سيَطرُد منها، بعد قليل، الأتراكُ العثمانيون النخبةَ الفاسدة المرتشية البيزنطيّة، عن طريق محاكمة بدأت منذ القرنَيْن السابقَيْن، على يد الأتراك السلاجقة. وجدير بالذكر أنه بلاد الأناضول عرفت، منذ زمن، عادات وتقاليد صوفية من أصل فارسي، ونذكر- على سبيل المثال- نخبة الدراويش الراقصين الذين يشير إليهم ابن بطّوطة في كتابه [16].

جاب الرحّالة شبه جزيرة الأناضول، طولًا وعرضًا، مستفيدًا من هذه الرحلة التي اغتنى فيها بفضل مهاراته، بوصفه رجل قضاء عربي ومسلم، وكانت مهاراته هذه محبوبة ومرغوبة من طرف الأقلّيّة التركية الحاكمة التي كانت تبحث، وتسعى دائمًا إليها، من أجل مؤسَّساتها الدينية الجديدة، ولتبرير حكمها، وتقويته.

على متن قارب مسيحي آخر [17]، مَخَر ابن بطّوطة عباب البحر الأسود، ثم مرّ عبر شبه جزيرة القرم، وتوغَّل في السهوب الروسية التي كانت، حينذاك، تحت سيطرة القبيلة الذهبية، وهي قبيلة من الأتراك الأوزبك قد اهتدت إلى الديانة الإسلامية منذ فترة غير بعيدة، وهي في حاجة إلى مهارات العلماء والفقهاء والقضاة من العرب المسلمين،

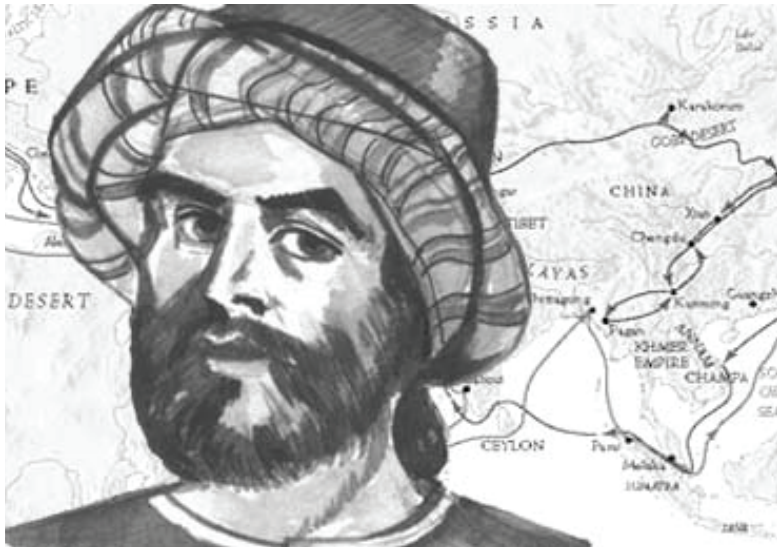

مثلما كان الأمر- كما سبق الذكر- في بلاد الأناضول.

يعبر ابن بطّوطة القوقاز مع محلّة [18] السلطان أبو سعيد، ويتوجّه صوب القسطنطينية، وبعدها نحو شمال بحر القزوين مارًا بالسهول الخصبة لنهر الفولجا الذي يُعَدّ من أطول أنهار أوروبا وأغزرها، ثم يتوجّه إلى الجنوب الشرقي مارًا بمدينتَيْ بخارى وسمرقند، ويبلغ أفغانستان سنة 1333م. ما إن يطأ أرض القارّة الهندية، حتى يُستدعى إلى البلاط المتعدِّدة الجنسيّات للسلطان القويّ محمد بن طغلق، (تركي/مغولي الأصل)، والذي كان رئيس السلطنة الإسلامية لمدينة دلهي.

وفي الهند، يتوقَّف ابن بطّوطة فترةً مؤقَّتة من الزمن عن مسيرتة الدؤوبة، حيث- ولمدّة سبع سنوات- يمكث في خدمة السلطان: في البداية، بوصفه قاضيًا، ثم بوصفه مسؤولًا عن مجمع القبور الخاصّ بالأسرة السلطانية. بعدها- وبأمر من السلطان نفسه- يرحل ابن بطّوطة إلى بلاد الصين مع وفد دبلوماسي، لكن عددًا من المخاطر تحول دون متابعة سفره وتحقيق غايته. هذه العراقيل تجعله يغيِّر وجهته نحو جزر المالديف التي يقيم بها سنة ونصف السنة، وهو يزاول مهنة القضاء.

بعد ارتحاله من جزر المالديف، يزور ابن بطّوطة جزيرة سريلانكا وجنوب الهند، وفي سنة 1345م، يتوجّه هذه المرّة (ليس بأمر السلطان بل من تلقاء نفسه، وبدافع هاجس شخصي محض) نحو الشرق الأقصى، مارًا بمناطق البنغال، وماليزيا، وأندونيسيا، حتى يصل الى الصين [19].

من الصين يبدأ الرحّالة عودته إلى بلاده المغرب، ويتَّجه- أوَّلًا- نحو بلاد الهند، ثَمَّ، مرّةً أخرى، نحو الجزيرة العربية حيث يحجّ للمرّة الرابعة في سنة 1348م، وهذه- بالنسبة إليه- الحِجّة الرابعة والأخيرة [20]. انطلاقًا من الديار المقدَّسة، يذهب ابن بطّوطة- مرَّةً أخرى- إلى الشرق الأوسط، وإلى شمال إفريقيا التي كانت- وقتئذٍ- مهدَّدة بوباء الطاعون الأسود القاتل [21]. وبتاريخ 6 نوفمبر، من عام 1349م، يعود ابن بطّوطة إلى وطنه الأمّ بعد غياب دام أربع وعشرين سنة. إلَّا أنه لم يتَّجه مباشرةً إلى مدينة طنجة، مسقط رأسه، بل يقصد مدينة فاس، ليتقدَّم أمام السلطان المريني، الحاكم أبو عنان فارس بن علي [22].

ولم تُنسِه عودته إلى بلاده التفكير في الرحلة والترحال والسفر؛ الشيء الذي جعله يستأنف مسيرة رحلاته المألوفة. كانت الأندلس أوَّل اتِّجاهه. وبعدها، رحل صوب الصحراء الإفريقية التي سلكها من الشمال إلى الجنوب ليبلغ بلاد النيجر التي يسمّيها ابن بطّوطة "السودان" [23].

وفي سنة 1353م - بأمر صريح من السلطان المريني- يعود ابن بطّوطة إلى فاس ليمكث- بشكل نهائي- في وطنه وبلده المغرب. خلال رحلته الطويلة، كان قد زار ما يعادل أربعًا وأربعين دولة حديثة، وقطع مسافة تُقَدَّر بـ 120,000 كم [24]. صادف فيها عددًا من الأشخاص والأجناس وتعرَّف إليهم، واستخدم كلّ وسائل النقل، على اختلاف أنواعها وأشكالها، ليعبر البرّ والبحر: الحمير، والخيول، والجِمال، والعربات [25]، والقوارب، والسفن. ومن المحتمل أنه استخدم حتى المزالق [26].

بعد مرور وقت قليل من عودة ابن بطّوطة؛ أي في سنة

1354م، يقرّر السلطان أبو عنان أن يكلِّف أديبًا من أدباء بلاطه، هو أبو عبد الله ابن جزي الكلبي [27]، (أندلسي الأصل)، بمهمّة تدوين مغامرات الرحّالة ابن بطّوطة، وملاحظاته، حول العالم، في صيغة رحلة، بكلّ وقائعها وأحداثها.

بحسب ما جِيء به في النصّ نفسه، فقد انتهى تدوين الكتاب في شهر صفر لسنة 757هـ- فبراير، سنة 1356م[28]. وخرج النصّ النهائي إلى الوجود، بعد بضعة أشهر، تحت عنوان "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"[29].

بعد فترة وجيزة، لقي ابن جزي رَبَّه، في حين انعزل ابن بطّوطة في بلدة ريفية، حيث كان يمارس، في أغلب الظنّ، مهنة القضاء إلى حين وافته المنِيّة، "في السبعين من عمره" (سنة 769/770 هـ/ 1368/69 م) [30]. وفي مدينة طنجة، مسقط رأسه، يمكن- حتى الآن- لأيّ معجب بالرحّالة الشهير أن يزور قبره المتواضع الموجود في المكان عينه [31].

ابن بطّوطة بين الرحلة والرواية

إذا كان السلطان أبو عنان قد أوكَلَ للأديب ابن جزي مهمّة تدوين رحلة ابن بطّوطة، فمن الممكن أن هذا الأخير لم يكن يتمتَّع بكفاءات أدبية واسعة [32]، ومع ذلك فإن ابن بطّوطة هو الذي "وضع قلبه وروحه" في النصّ. طبعًا، ابن جزي هو الذي جعل من الرواية نصًا أدبيًا، واحترم مقاييس الكتابة ومعاييرها، في التدوين، بإدماج أبيات شعرية متَّصلة بالأماكن التي تَمَّ ذكرها من طرف الرحالة، وكذا عددًا من الديباجات البلاغية والمدائح المتألِّقة، مستعملًا- تارةً- أسلوب التنميق، وتارةً أخرى يأتي النصّ مثقلًا بالسرد الصريح للراوي [33]. وبالرغم من أن ابن بطّوطة لم يكن أديبًا ممتازًا، فإنه- بالحقّ- كان راويًا عظيمًا! من خلال كتابه، نعرف أنه كان يحبّ رواية أحداث أسفاره، بصورة مفصّلة، وبهذه الطريقة كان يسحر مستمعيه. في جزيرة سيلون- مثلًا- يقول ابن بطّوطة مسرورًا: "وكان (سلطان سيلان) يعجبه ما أحدِّثه به عن الملوك والبلاد" [34]. وجدير بالملاحظة الكلمات التي يصف بها ابن جزي لقاءه الأوَّل مع ابن بطّوطة، في أحد بساتين مدينة غرناطة في الأندلس، سنة 1351م: "كنت معهم في ذلك البستان، وأمتعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته، وقيَّدت عنه أسماء الأعلام الذين لقِيَهم فيها، واستفدنا منه الفوائد العجيبة" [35].

بعد سنتين من هذا اللقاء؛ أي في سنة 1353م، غادر ابن جزي صوب بلاط فاس، وكما سبق الذكر، كَلَّفه السلطان، شخصيًا، بكتابة تلك الأخبار ذاتها. في هذه الأثناء، كان ابن بطّوطة يقوم بتخصيب تجاربه عن طريق رحلته إلى إفريقيا الغربية. وبعد رجوعه إلى فاس، كان يستمرّ في رواية أحداثه ومغامراته في مغارب الأرض ومشارقها. ترى، كم مَرةً رواها من قبل، عندما بدأ يرويها لابن جزي، ليكتبها؟ صحيح أن الملاحظات المدوَّنة المتعلِّقة بالرحلة تَلَفَتْ مع كلّ ممتلكاته، حين تعرَّضت سفينته لهجوم من طرف "الكفّار"، في عرض سواحل هونفار بالهند [36]، لكن هذا لم يكن يهمّ الرحالة الكبير الذي كان يملك ذاكرة قويّة قادرة على حفظ كلّ أحداث مغامراته.

في بلاط السلاطين، في الشرق، في حدائق الأندلس المورقة، تحت سماء زنجبار المرصّعة بالنجوم، في ظلّ واحة وسط صحراء السودان... ما أكبر عدد الأفكار والذكريات والأحداث والأناس والأماكن التي قد روى عنها ابن بطّوطة! إنها آلاف المرات. ولم يكفّ عن رواية مغامراته بعد رجوعه الى المغرب، بل بدأ يروي أحداثه المعجبة للأصدقاء وللأقارب وللناس العاديّين وللشيوخ وللأطفال، تحت أروقة المدرسة البوعنانية في فاس، أو تحت أقواس مسجد الكتبيّين في مراكش: كم شخص سحره بحكاياته! تلك الحكايات التي كان ابن بطّوطة ينتقيها على أساس الفضول الذي كان يقرؤه في عيون مستمعيه، والتي حكاها وحكاها حتى تعلَّم كيف يحافظ على الإيقاع؛ لإشراك المستمع في القصّة، ولتحريك مشاعره، ولتثقيفه، ولإثارته. كان ابن بطّوطة

يحفظ النصّ عن ظهر قلب، وكما هو وارد في النصّ، تمّ تدوين الرحلة عن طريق الإملاء [37]، واستغرق الأمر مدّة هي أقلّ من سنة [38].

في الماضي، قِيلَ الكثير عن رحلة ابن بطّوطة، وكُتِب الكثير عنها، ولا يزال الجدل قائمًا إلى الآن. بالفعل- وعلى وجه الخصوص- اهتمّ المؤرخّون والأدباء بالعمل نفسه، وبالمشاكل المتعلّقة بالتواريخ، وبالمسير، وبمصداقية الحقائق المرويّة، والثقة فيها، وهذا منذ عهد ابن بطّوطة، حيث إن القليل من الأدلّة التي نتوفَّر عليها تبيِّن أن قصصه كانت تثير شكوكًا كبيرة في بلدان المغرب العربي [39]، وصولًا إلى القرن الـ19 الميلادي، عندما أخذ علماء الغرب ينبشون في نصّ الرحلة التي كانت قد آلت بها الظروف إلى النسيان، ويهبشونه، محاولين استكشاف الحقائق، بصورة واضحة.

اليوم، وبالرغم من بعض الانتقادات الموجَّهة إلى ابن بطّوطة، بحجّة أنه استمدَّ بعض تقاريره وخبراته من رحلات سابقة (وخاصّة من رحلة ابن جبير المشهورة)[40]، وأنه-ربَّما- لم ينته به الأمر إلى زيارة كلّ الأماكن التي ذكرها والتي وصفها لنا [41]، من فإن العلماء والأدباء سواء من العرب أو من المستشرقين، يقرّون ويدركون القيمة الوثائقية لأغلب أجزاء عمل ابن بطّوطة وتُعَدّ رحلته أحد المصادر الأكثر أهمّيّة، خاصّة فيما يتعلَّق بالتاريخ، والسوسيولوجيا، والأنثروبولوجيا، للإمارات التركية المغولية، من الأناضول إلى الهند، وللمملكة المالنكية في إفريقيا، جنوب الصحراء، ولجزر المالديف، في العصور الوسطى.

وهدفنا، في هذه الورقة، هو تخيُّل طريقة سرد ابن بطّوطة لرحلاته، واستقرائه- بغضّ النظر عن مشاكل التواريخ والأماكن- لذكرياته المفعمة بأحاسيسه وعواطفه ومشاعره تجاه الأشخاص، حيث- بالحقّ- كان الإنسان العنصر الرئيس الذي اهتمّ به ابن بطّوطة أكثر من غيره، خلال أسفاره [42]، متأثِّرًا- بطبيعة الحال- ببيئته الأصلية المثقَّفة المدنية، التي كان لها دور التصفية والانتقاء في اختيار هذه المجموعة من الناس. لقد وصلَنا القليل، من ابن بطّوطة، عن أسلوب الحياة في الطبقات الدنيا، وهو لا يصف لنا الرحّالة تقاليد وعادات أهل الريف، ولا يعطينا معلومات كثيرة عن المجتمعات غير المسلمة: بعض القصص الغريبة والأحكام المسبقة، وبعض المواقف الجهادية، وبعض القصص الدرامية المثيرة، عن شعوب الهندوس.

لذلك، يمكننا القول إن ابن بطّوطة لم يكن جغرافيًا مثل محمد بن أحمد البيروني (ت 1048)، وأبو عبيد البكري (ت 1094)، ولم يكن كتابه دليلًا للتجّار مثل كتاب التاجر الإيطالي "ماركو بولو".

إن طريقة روايته تتَّصف، في بعض الأحيان، بطابع التحذلق، لكنها تكتسي صبغة شخصيّة بحتة: الخيط الموصل هو الراوي، وذكرياته الذاتية تبقى العامل الوحيد، الذي بإمكانه القدرة على تكشُّف مسار الرحلة.

ربَّما، خانته الذاكرة يومًا [43]، أو تلاشت اهتماماته، إلَّا أنه يستعين بالثّقافة والتقاليد الأدبية العربية، والفارسية، والهندية ويعتمد عليها مدمِجًا حكايات غيره، ورواياته، كما هو الأمر في حكايات "ألف ليلة وليلة": تارة، قصّة معجزة وتارةً أخرى قصّة تعليمية... لاشكّ في أن ابن بطّوطة كانت له قدرة فريدة من نوعها على إدهاش مستمعيه وجعلهم ينصتون لساعات دون الإحساس بالملل (ولايزال): تارةً، بفضل ميله الجذّاب للتحدُّث عن ذاته [44]، وتارةً، بفضل المجموعة من الأساطير والحكايات والعجائب الواردة في كتابه والتي هي- في الحقيقة- خليط من التوابل الشرقية التي تُدخِل نكهة متميِّزة على قصصه.

رحلات ابن بطّوطة

يُعَدّ أدب الرحلات فرعًا من فروع الأدب العربي، ينحدر، مباشرةً، من الجغرافيا التي هي "وليدة الخلافة العباسية"[45]، ويتطوّر بين القرنَيْن: الثامن، والتاسع

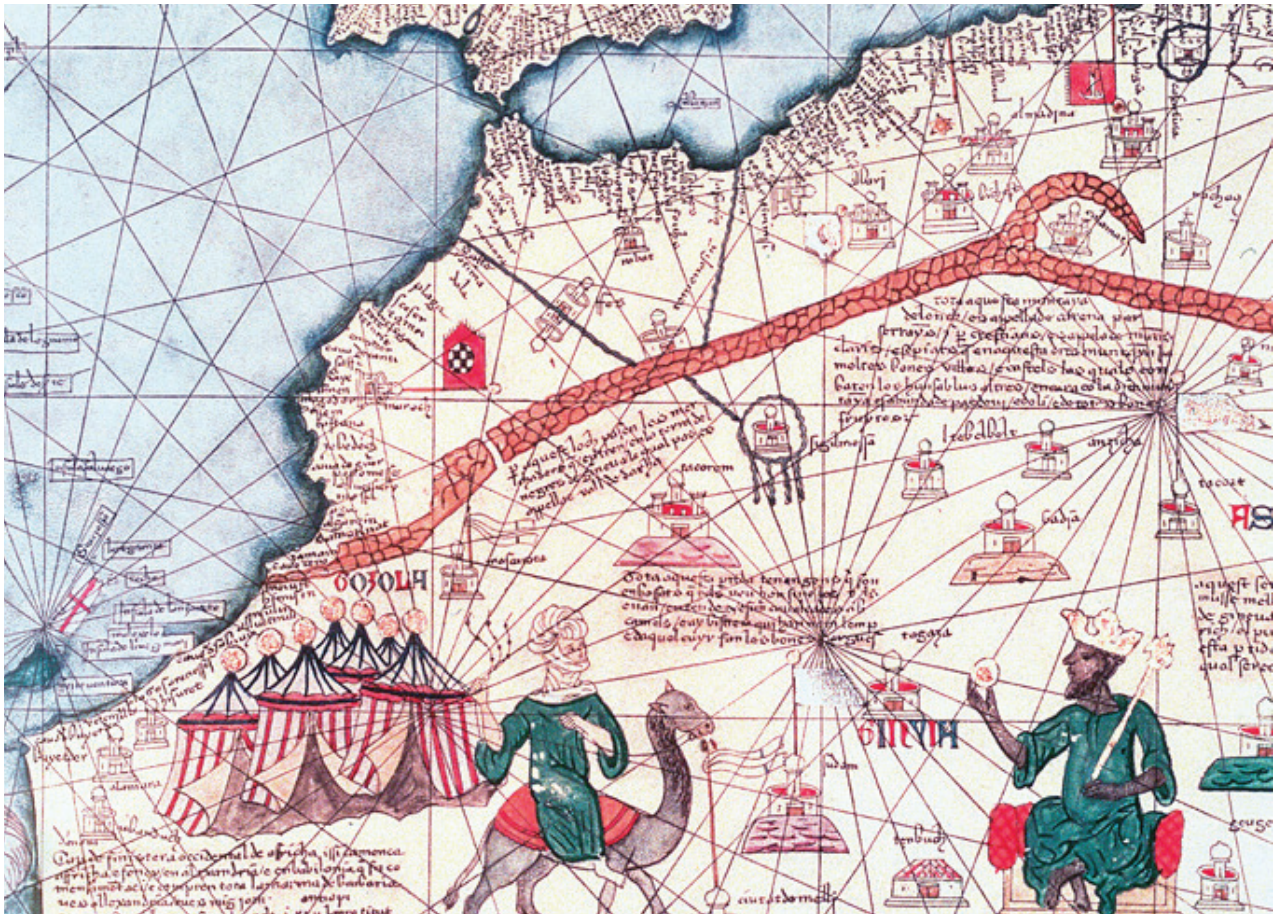

الميلاديَّيْن (الثاني والثالث الهجريَّيْن)؛ أوَّلًا: بوصفه تقنية متأثّرة بالأعمال الإغريقية والأعمال الفارسية المترجَمة إلى العربية في دار الحكمة ببغداد، وثانيًا: بوصفه صيغة سردية، تبنَّت أشكالًا مختلفة، بحسب احتياجات الديوان لجمع الضرائب، على وجه التحديد، ويجب على الإدارة المركزية أن تعرف كلّ شبر يخصّ ترابها الوطني، من موقع القرى والمدن إلى الأنهار والجبال... إلخ.

وابتداءً من القرن العاشر، يضيف الجغرافيّون إلى البيانات الطبوغرافية التي تصف دار الإسلام بعض المعلومات التاريخية عن عادات الشعوب الأخرى وتقاليدها وأعرافها، وبدأوا، بهذا، يدمجون، في رواياتهم، عناصر لطيفة تُدخِل المتعة على القراءة وتُحفِّز خيال القارئ.

نتيجة لذلك، دخلت الجغرافيا، شيئًا فشيئًا، في الأدب. وبعد القرن الثاني عشر، في بلدان المغرب العربي والأندلس، نشأ نوع أصيل وحقيقي من الأدب، يسمّى بـ "الرحلة"[46]، التي هي عبارة عن قصّة مرويّة- غالبًا- في أثناء موسم الحجّ وزيارة الأماكن المقدَّسة، مثيرة ومخصَّبة بوصف الأماكن والمؤسّسات والشخصيات المهمّة التي عرفها التاريخ الإسلامي، وبملاحظات المؤلِّف الشخصية[47].

تدخل رحلة ابن بطّوطة في هذا النطاق الأدبي؛ أي في أدب

الرحلة، وهي أطول رحلة عرفتها البشرية، وأكثر الإنتاجات التي عرفها شمال إفريقيا تعقيدًا، خلال العصور الوسطى (قُرابة 28 سنة من السفر في منطقة جغرافية، تمتدّ من مدينة تمبكتو إلى مدينة قوانتشو، من فولغوغراد إلى تنزانيا): إنها "رقم قياسي" حقيقي حتى في المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى، الذي كان متعوّدًا على الرحلات الطويلة والبعيدة جدًا، من بلد إلى أخر، وحتى إلى أرض "الكفّار".

"رحلة ابن بطّوطة" أغنى رحلات الأدب العربي، وصفًا وتفصيلًا، وبإمكانها تحفيز الخيال البصري للقارئ، مع الإشارة إلى أن العرب، الذين كانوا قد زيَّنوا، بمنمنمات جميلة، في القرن الثالث عشر الميلادي، مخطوات بعض الكتب مثل "كليلة ودمنة" لابن المقفع (ت 759)، ومقامات الحريري (ت 1112) [48]، إلَّا أنهم لم يزيِّنوا بها، أبدًا-بقدر ما نعرف- صفحات رحلة ابن بطّوطة. لكنّ بعض المختصّين سلَّطوا الضوء على الطريقة المفصَّلة جدًا والمدقَّقة التي يتّسم بها ابن بطّوطة في كيفية سرده لرواياته، وهناك من قارن عمله نفسه بمنمنمة [49]. ونودّ أن نضيف أن دقّة الوصف المحكمة تذهب بأذهاننا إلى تخيُّل الرواية، وكأنها مشهد من فيلم ما [50].

فيما يتعلَّق بمسار رحلة ابن بطّوطة، فإنه يختلف عن مسار الرحّالة العرب السابقين، ويفتح بابًا جديدًا في أدب الرحلات؛ لأنه- إلى ذلك الحين- كانت الرحلة مهتمّة برحلات المسلمين إلى الأماكن المقدَّسة، أو- على الأصحّ- إلى المشرق؛ بوصفه مصدرًا للمعرفة وأنموذجًا للثّقافة العربية الإسلامية. لكن، مع ابن بطّوطة تتوسَّع حدود

الرحلة إلى ما وراء ذلك، وينفتح اهتمام الرحّالة على مناظر العالم الإسلامي كلّه، آنذاك. وكانت هذه المناظر- على الرغم من اختلافها وتنوُّعها- تلتقي في نقطة واحدة؛ هي الدين الإسلامي وثقافته: يخاطب رحّالة الإسلام، ابن بطّوطة، مواطنيه المغاربة المسلمين من أبناء جيله، ويقول لهم إن الأمّة الإسلامية حاضرة وحيّة، ويمكن لمس حضورها، بشكل واضح وجليّ، في القيم الإسلامية والمراجع الثّقافية، ناهيك عن الانقسامات الإقليمية، والجهوية.

إن الرحلة- بوصفها عملًا أدبيًا- تدخل في نطاق الموسوعة: يروي لنا ابن بطّوطة عن المدن، والآثار، والدين، والتاريخ، والأدب، وفنون الطبخ [51]، والحياة اليومية، والجغرافيا، والفنون السحرية... و- أحيانًا- يصف لنا المناظر الطبيعية، حتى أنه، في بعض المناسبات النادرة، يتطرَّق إلى وصف الطبيعة التي تعكس حالته النفسية[52]. إضافةً إلى ذلك، هو يصف- بكلّ دقّة- المؤسّسات الإسلامية، كالمساجد، والأسواق، والزاويات، والمدارس، والحمّامات، المستشفيات...، وكذا الشعائر والطقوس، سواء منها التعبُّدية داخل أماكن مقدَّسة أو مباركة، أو الكيفية اللائقة للتعامل بها داخل البلاطات وقصور العظماء، كما لا ينسى أن يتحدَّث عن احترام الشريعة الإسلامية وتطبيقها في مختلف البلدان [53].

أسلوب سرده يثير الاهتمام والانتباه، بتعدُّد أنواعه، واختلافها، وهو لا يتبع أنماطًا ثابتة، حيث يمكنه أن يخصِّص صفحات لوصف دقيق ومعمَّق يتعلَّق بقرية أو بمكان ذي أهمّيّة بسيطة، في حين أنه يصف لنا، في عُجالة، وفي سطور معدودة، أماكن ومدنًا جدّ معروفة [54].

الجُمَل طويلة، وأوجه التشابه متعدِّدة، وفي كلّ العناصر- تقريبًا- تجد استشهادات من القرآن الكريم. أمّا الأسلوب فيكثر فيه استخدام المجازات التي تطغى على جلّ الروايات. كلّ هذه السمات مميِّزة للأدب العربي، ولو أن اختيار طريقة نمط االتعبير تُنسب إلى الكاتب ابن جزي، أكثر من نسبتها إلى الراوي ابن بطّوطة، ونلاحظ- أيضًا- محاولة إيجاد نوع من التوازن- على سبيل المثال- فإن الصفة التي يتميَّز بها سكّان مدينة النجف العراقية: "... هم أهل الشجاعة وكرم، ولا يضام جارهم، صَحبتُهُم في الأسفار فحمدت صحبتهم"، لكن الجملة تنتهي على هذا النحو: "... لكنهم غَلَوا في عليّ، رضي الله عنه" [55].

أو ما قاله عن جزر المالديف، لمّا استاء من طريقة ارتداء النساء للباس: "ونساؤها لا يغطّين رؤوسهنّ، ولا سلطانتهم تغطّي رأسها، ويمشِّطن شعورهنّ... ولا يلبسن أكثرهنّ إلَّا فوطة واحدة تستر من السرة إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوف، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها" [56]. لكنه، بعد تفكير وإمعان، يضيف قائلًا: "وكان لي جوار، كسوتهن لباس أهل دهلي، وغطّين رؤوسهنّ، فعابهنّ ذلك أكثر ممَّا زانهنّ، إذ لم يتعوَّدنه!" [57].

ينتهي الكتاب، مثلما بدأ، مع الاعتذار من السلطان: وقد أغلق ابن بطّوطة الدائرة، كما يليق بروايةٍ جيِّدة.

كما هو شأن كلّ راوٍ أو حاكٍ ماهر، في الإطار الثّقافي لتلك الحقبة، ينغمس ابن بطّوطة، ويتعمَّق في حكايات عجيبة وخارقة للعادة. غالبًا ما يضع- في المستوى نفسه- أمورًا قد شاهدها شخصيًا، وأمورًا أخرى سمعها من الغير (شرط أن يكون هذا الأخير جديرًا بالإيمان)، خرافات وأساطير (مثل إنشاء جمعية مستشفى دمشق، بفضل مجموعة من الأواني النحاسية التي تحوَّلت إلى أوانٍ من ذهب) [58]، وكثيرًا ما يشرح- أيضًا- حقائق بسيطة، مستخدمًا الروائع (مثلما يتكلَّم عن اتِّجاه القِبْلة في مسجد الرسول بالمدينة المنورة) [59]؛ وفي بعض الأحيان، يصف آثارات وأماكن- ربَّما- لم تُرَ قط [60].

علاوةً على ذلك، في مناسبات عدّة، هو أوَّل من يشير إلى عدم صحّة الأخبار، ويوضّح، بعدها، السبب الذي جعله يكتب موضوعًا خرافيًا أو يتطرَّق إليه، كقصة أصل الجوز الهندي، ويخلص قائلًا: "وهذه الحكاية من الأكاذيب، ولكن ذكرناها لشهرتها عند أهل الهند" [61].

وعلى الرغم من فضوله العميق لكثير من الأمور،

فكان ابن بطّوطة يولي أهمّيّة قصوى لعدد من الأجناس التي كانت تشكّل دار الإسلام: منهم عرب، وبربر، وأتراك، ومغول، وفرس، وهنود، وصينيون، وأندلسيون، وصوماليون ونيجيريون، وهو يصف لنا عاداتهم وطريقة حياتهم الأسرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتجارية. وقبل كلّ شيء، يهتمّ ابن بطّوطة- كما سبق الذكر- بالأشخاص لا بالسلاطين، والعلماء، والتجار، والفقهاء، والرؤساء فحسب، كالنساء والأطفال، والشيوخ، والعبيد والمغنّين... هناك من سَلَّطَ الضوء على ابن بطّوطة في كونه لا يهتمّ بالمتاجر وبالبضاعة المسوَّقة فيها، بقدر ما كان يولي اهتمامًا كبيرًا بصاحبها [62]، وكان، عندما يتحدّث عن التاريخ، حذرًا ومنتبهًا إلى السيرة الذاتية للشخصيات، لا إلى تسلسل الأحداث: روى عن الحياة، وعن الموت، وعن معجزات الأبطال، دون أيّ مَيْل لتحليل أسبابها وعواقبها[63].

في الجزء الثاني من هذا المقال، سنلقي لمحة على كيفية تعامل ابن بطّوطة مع النساء والأطفال، هي شخصيّات ثانوية لكنها ليست بالهامشية- كما سنرى- من أجل معرفة رجل، هو- أوّلًا، وقبل كلّ شيء- خرج من بلده للبحث عن الناس.

الهوامش:

1- رحلة ابن بطّوطة، مراجعة الأستاذ عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، 5 مجلّدات (في التعليقات التالية "الرحلة" فقط)، الجزء الثاني، ص 17.

2- الجملة الكاملة لشيشرون هي: "التاريخ شاهد الأزمنة، نور الحقيقة، حياة الذاكرة، معلم الحياة، رسول القدم"

Historia vero testis temporum, lux veritatis, vita memoriae, magistra vitae, nunti vetustatis) (كتاب "عن الخاطب"، II، 9، 36).

3- تُرجِمت رحلة ابن بطّوطة، حتى الآن، الى نحو 50 لغة، وأنا- شخصيًا- ترجمتها بكاملها، وللمرّة الأوّلى، من العربية إلى الإيطالية لدار النشر "Einaudi"، في تورينو (إيطاليا)، عام 2006.

4- جدير بالملاحظة أنه، حتى لو كان معظم الرحّالة العرب لا يعاشرون، خلال رحلاتهم، إلّا الناس من الطبقات العليا، مثلما كان الأمر بالنسبة إلى ابن بطّوطة، إلّا أن بعضهم عاشروا جميع أصناف الناس، من السلاطين إلى الصباغين، من الأمراء إلى الفقراء، مثلما فعل الرحّالة الشهير محمد بن أحمد شمس الدين المقدسي (ت 990). انظر مقدّمته لكتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، Al-Muqaddasi 2014:X-XI.

5- لتسهيل القراءة، سيسجَّل كلّ تاريخ، من هنا إلى أخر النصّ، بحسب التقويم الميلادي/ الغريغوري، فقط.

6- إنّ "لَواتة" (أو "لُواتة" أو "لوبي" أو "لوبيم" أو "لِباهِيم") هو اسم قبيلة قديمة مذكورة في العهد الجديد. (انظر- على سبيل المثال- الرسالة الثانية الى أهل كورنثوس، 12,3)، وفي كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" لتقي الدين المقريزي (ت 1442)، وكانت قبيلة مهمّة من البرابرة، انتشر أفرادها في كلّ مناطق شمال إفريقيا، ومن اسمهم جاء اسم دولة ليبيا الحالية (فيما يتعلّق بدور هذه القبيلة في تاريخ البحر المتوسّط، انظر: Marconi 2003:41-ss).

7- ليس "ابن بطّوطة" اسم شهرة أو لقبًا، بل هو كنية العائلة، حيث يذكر ابن بطّوطة، في رحلته، أن قاضي مدينة رُندا الأندلسية، في وقت زيارته إليها، كان ابنَ عمّه الفقيه أبا القاسم محمَّد بن يحيى بن بطّوطة (الرحلة، الجزء الرابع، ص 217-18). أمّا كلمة "بطّوطة" فيمكن أن تكون اسم التصغير لـ "بطّة"، وهو الاسم المستخدَم في بعض مناطق المغرب، على سبيل التلميح لـ "فطّومة"؛ أي لـ"فاطمة". (انظر Gabrieli 1961; Mackintosh-Smith 2002:33 IX; Abd al-Razī 2002:14).

8- أمّا عائلة ابن بطّوطة، فلا نعرف عنها سوى بعض المعلومات الواردة في الرحلة، حيث يتكلّم ابن بطّوطة عنها في ثلاث مناسبات:

أ) يقول في الهند، وهو في بلاط سلطان دلهي: "أمّا القضاء والمشْيَخة فشغلي وشغل آبائي" (الرحلة، الجزء الثالث، ص 233).

ب) يلتقي ابن بطّوطة، في مكّة، بالقاضي الطنجي أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجري، ويقول عنه إنه كان صديقًا من أصدقاء أبيه، يتردّد على بيتهم بطنجة. (الرحلة، الجزء الأول، ص 392).

ج) كما قلنا في التعليق السابق، يذكر ابن بطّوطة قاضي مدينة رُندا الأندلسية، الذي كان- حينذاك- ابن عمّه الفقيه أبا القاسم محمَّد بن يحيى بن بطّوطة.

9- الرحلة، الجزء الأوّل، ص 153.

10- هكذا يسمّى المسافرون في القرآن، سورة البقرة، (الآية: 177).

11- كما سنرى، في الجزء الثاني من هذا المقال، أن ابن بطّوطة التقى، في رحلاته، بعدد من الشيخات والعالمات، وحصل من بعضهنّ على إجازات في علوم الدين والشرع.

12- الرحلة، الجزء الأوّل، ص 186.

13- الرحلة، الجزء الأوّل، ص 194.

14- لم يسجِّل ابن بطّوطة، في كتابه، كثيرًا من التواريخ، فاعتمادًا عليها، أثبت بعض الباحثين أنه من الممكن أن إقامته هذه في مكّة لم تتجاوز سنة واحدة، فقط.(Gibb 1958 II:529-32; Hrbek 536-37, Dunn 1962:483-86, 2005:167).

15- فيما يتعلّق بتاريخ تجارة العبيد في هذه المنطقة، انظر: Pétré-Grenouilleau 2004.

16- يذكر ابن بطّوطة، وهو في مدينة قونية، زيارته إلى تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين (الرومي)، المعروف بـ"مولانا"، وهو صاحب الطريقة الصوفية المولوية، نسبةً إلى "مولانا"، ومؤسّس طريقة الجلاليّين (او المولويّين أو

الدراويش الراقصين)، وُلِد في بلخ، وتوفِّي في قونية عام 1273. (الرحلة، الجزء الثاني، ص 173).

17- ربَّما كان هذا القارب من مدينة جنوة، مثل القارب الذي ركبه ابن بطّوطة من اللاذقية إلى الأناضول، وهذا بانتشار التجارة الجنويّة في البحر المتوسط، في ذلك الوقت (Dunn 2005: 201).

18- تدلّ كلمة "محلّة" على "المخيَّم المتحرِّك" المكوَّن من بلاط السلطان المغولي وخدمائه الذين كانوا يصاحبون السلاطين المغوليين عند أسفارهم. (Borbone sgg-2000:210).

19- أظهر بعض المتخصِّصين شكوكًا عن رحلة ابن بطّوطة الى الشرق الأقصى، وخاصّة فيما يتعلَّق بمدينة بكّين (المسمّاة في النصّ بـ "خان بالق"). (Dunn 2005:318-19 (20), Charles-Dominique 1139-40)

20- لو أن ابن بطّوطة، في المرّة السابقة يمكث في مكّة، لمدّة ثلاث سنوات، كما سبق الذكر (انظر التعليق رقم 14)، لكان أدّى مناسك الحجّ سبع مرّات.

21- فيما يتعلَّق بوباء الطاعون الأسود، وأثره على الاقتصاد المصري، انظر: Borsch، 2005م. وفيما يتعلَّق بالملاريا والطاعون اللذين صادفهما ابن بطّوطة في رحلته ولم يُصَب بهما، انظر: Rivalta, Tresso، 2006.

22- أبو عنان فارس بن علي (وُلِد في فاس سنة 1329م) هو حاكم مريني، خَلف والده أبا الحسن علي بن عثمان، بوصفه سلطان المغرب، سنة 1348م، ومات خنقًا من قِبَل وزير له، سنة 1358م. اتَّخذ أبو عنان لقب أمير المؤمنين، وكان أميرًا عظيمًا، غزا المناطق الغربية لشمال إفريقية، حتى أصبح سلطان الأراضي، من المغرب إلى تونس، سنة 1357م، واهتمّ أبو عنان اهتمامًا عميقًا بالثّقافة، حيث لم يأمر- كما سنرى فيما بعد- بتدوين رحلة ابن بطّوطة فحسب، بل استضاف، في بلاطه، عددًا من الأدباء والمثقَّفين (ومن بينهم المؤرِّخ الشهير عبد الرحمن بن محمد بن خلدون)، وبنى المدرسة البوعنانية في مكناس، ومدرسة أخرى بالاسم نفسه في فاس، كما بنى- أيضًا- بيمارستان سلا.

23- في رأي بعض المعلِّقين، سواء من العرب أو من غيرهم، كانت هذه الرحلة إلى بلاد السودان بتكليف من السلطان أبو عنان، في مهمّة خاصّة، انظر: Dunn 2005:369 (7), al-Tāzī 1997 IV:239 (1).

24- من المختصّين من يقول (117,000 كم) (Dunn 2005:20) أو (124,200 كم) (Husayn 1976 LIII:) أو أكثر من (120,000 كم)، دون أن نأخذ في الحسبان رحلاته طولًا وعرضًا في الهند (Yule 1913-16 IV:40).

25- لم يكن العرب، في ذلك الوقت، يستعملون العربات، بوصفها وسائل للنقل (Rodinson, EI2, Charles-Dominique, 'araba s.v. 1995 XIII:)، ويركب ابن بطّوطة عربة- للمرّة الأولى- في شبه جزيرة القرم، وهو يسميها "عجلة". (الرحلة، الجزء الثاني، ص 216).

26- يتكلَّم ابن بطّوطة على المزالق، وهو في مدينة بلغار، على بعد 40 كم من "أرض الظلمة"، ولا يقول عنها إلَّا الجملة الآتية: "السفر إليها لا يكون إلَّا في عجلات صغار، تجرّها كلاب كبار". (الرحلة، الجزء الثاني، ص 236).

27- تشير نسبة ابن جزي إلى أنه كان ينتمي إلى قبيلة كلب العربية، ومن المعروف أنها كانت قبيلة قديمة، هاجر بعض أفرادها إلى الأندلس في زمن فتحها، على يد العرب، يعني في القرن الثامن الميلادي (Dixon, EI2, Kalb b. s.v. Wabara)، وكان ابن جزي أديبًا شهيرًا، وأستاذًا من أساتذة لسان الدين الخطيب وصاحب مؤلَّفات عدّة في العلوم الشرعية والدينية (Gibb I:6 (17), al-Tāzī 1997 I:79).

28- الرحلة، الجزء الرابع، ص 280.

29- ليس من السهل ترجمة هذا العنوان إلى اللّغات الأخرى، بسبب تصويته الجميل، بالعربية، وفيما يتعلَّق باللّغات الأوروبية الرئيسة (الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإسبانية والإيطالية) فتُرجِم بالعبارات الآتية:

"A Donation to those interested in the Curiosities of the Cities and Marvels of the Ways" (Gibb 1929:339);

"The Precious Gift of Lookers into the Marvels of Cities and Wonders of Travel" and "An Armchair Traveller›s Treasure: the Mirabilia of Metropolis and the Wonders of Wandering" (Mackintosh-Smith 2001:4);

"Présents fait aux observateurs, traitant des curiosités offertes par les villes et des merveilles rencontrées dans les voyages" (Défremery e Sanguinetti 1982 I:65);

"Présent à ceux qui aiment à réfléchir sur les curiosités des villes et les merveilles des voyages" (Charles-Dominique 1995:369);

"Ein Geschenk für Neugierige, die die Wunder der Städte und des Reisens kennen lernen wollen" (GrÜn 2007 I:XIV)

"Regalo de curiosos sobre peregrinas cosas de ciudades y viajes maravillosos" (Fanjul 1987:24);

"Dono agli studiosi delle curiosità dei paesi e le meraviglie dei viaggi" (Gabrieli 1961:XXV);

"Un dono di gran pregio per chi vuol gettar lo sguardo su città inconsuete e peripli d'incanto" (Tresso 2006:I).

30- هكذا نقرأ في كتاب "الدرّر الكامنة" للفقيه المصري ابن حجر العسقلاني (ت 1449) (al-'Asqalānī 1929-31 III:480-81) وعلى خلاف ذلك يدّعي بعض المستشرقين أن ابن بطّوطة توفّي عام 79/1378 (De Slane 1994:75, Miguel, s.v. Ibn Baṭṭūṭa, EI2).

31- بحسب بحوث الأستاذ المغربي عبد الهادي التازي، من المحتمل أن ابن بطّوطة دُفن في مدينة "أنفى" التي دمَّرها البرتغاليون في القرن الخامس عشر، وبنوا على أطلالها مدينة جديدة اسمها الدار البيضاء (al-Tāzī 1997 I:81; al-Tāzī 2002:15).

32- على الرغم من أن ابن بطّوطة كان رجلًا ذا ثقافة عميقة (al-Tāzī 2002:16-18).

33- يشير ابن جزي- عادةً- للقارئ، إلى تدخُّلاته في الرحلة، وأغلبها متعلِّق بالمناطق المركزية لدار الإسلام وللأندلس. ومن الممكن أن يكون ابن جزي هو الذي أدخل في السرد بعض أجزاء رحلة ابن جبير المتعلِّقة بمناطق مصر، وسوريا، والعراق. (فيما يتعلّق بنسخ بعض المقاطع من النصوص الأخرى في الأدب العربي، انظر: Kilito 1988).

34- الرحلة، الجزء الرابع، ص 79.

35- الرحلة، الجزء الرابع، ص 226.

36- الرحلة، الجزء الرابع، ص 98.

37- جدير بالملاحظة أنه لا يقال في الرحلة إن كان ابن بطّوطة قد أملى النص

على ابن جزي أو على شخص آخر، حيث نقرأ فيها: "ونفذت الإشارة الكريمة بأن يُملي (ابن بطّوطة) ما شهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار"، وفيما يتعلّق بابن جزي والمهمّة المكلَّف بها لتدوين الرحلة: "وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم (...) محمد بن جزي الكلبي (...) بأن يضمّ أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله"، (الرحلة، الجزء الأول، ص 152).

38- على العكس من ذلك، استغرقت ترجمة الرحلة، إلى اللّغات الأخرى، سنوات كثيرة، حيث بدأ "H. A. R. Gibb" عمله المشهور بترجمتها إلى الإنجليزية سنة 1958م، وأتمّه C. F. Beckingham، في سنة 1994م. أنا- شخصيًا- استغرقت مدّة سبع سنوات في ترجمة رحلة ابن بطّوطة بكاملها، وللمرة الأولى، من العربية إلى الإيطالية وفي تفسيرها للقارئ الإيطالي بالمئات من التعليقات المناسبة.

39- أغلب المعلومات عن حياة ابن بطّوطة نعرفها من خلال كتابه. ومن الذين كتبوا بعض المعلومات المحدودة عنه، نذكر وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب، (ت 1375) في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"، والمؤرِّخ التونسي من، أصل أندلسي، عبد الرحمن بن خلدون (ت 1405)، في مقدِّمته المشهورة، ويخبرنا هذا الأخير أنه، في بلاط فاس، حينذاك، كان الكثير لا يصدِّقون روايات ابن بطّوطة، ويعدّونه كذّابًا (Ibn Ḫaldūn 1992:327-29).

40- بالرغم من أن ابن بطّوطة، في كثير من المناسبات، لم يستمدّ المعلومات من رحلة ابن جبير، بل إنه قام بتحديثها أو، كما يقول الأستاذ التازي، بـ"تيويمها" أي جعلها مواكبةً لأيّامه وعصره (al-Tāzī 2002:20).

41- تتعلّق أغلب الشكوك برحلته إلى مدينتَي القسطنطينية، وبلغار، وكما سبق الذكر، في التعليق رقم 19، في جزء من رحلاته إلى آسيا الجنوبية الشرقية (Charles-Dominique 1995:1139-40; Gibb II:342) 512); Hrbeck 1962:472, 479-81).

42- "لا يتمتَّع ابن بطّوطة باكتشاف العالم بل بالاتّصال مع الناس وعلاقاته بهم" (Charles-Dominique 1995:1141)

43- جدير بالذكر أن ابن بطّوطة لم يكتب ذكرياته خلال رحلاته، بل بعد مرور زمن طويل عليها.

44- فيما يتعلّق بالميل إلى السيرة الذاتية، في رحلة ابن بطّوطة، انظر: Mackintosh-Smith 2002:22, Gabrieli 1961:XIV.

45 - Miguel 1967:2

46- تُشتَقّ كلمة "رحلة" من "رَحْل" (بالمعنى "سرج"، "بردعة").

47- بالإضافة إلى أهمّيّة الرحلة، بوصفها نوعًا أدبيًا جديدًا، كان عدد من الرحلات، حينذاك، مليء بالمعلومات التجارية المفيدة للحجّاج الذين كانوا كثيرًا ما يمارسون التجارة في الأسواق، لينفقوا على أنفسهم في أثناء سفرهم (El Moudden 75: 1990)

48- زُيِّن هذان العملان بالمنمنمات، في سوريا والعراق، في القرن الثالث عشر الميلادي.

(49) Mackintosh-Smith 2002:21.

50- انظر- على سبيل المثال- حديث لقاء ابن بطّوطة، وهو في مدينة مربلة الأندلسية، بجماعة من الفرسان المتوجِّهين إلى مدينة مالقة، حيث يصف الرحّالة المشهد تفصيلًا، وكأنه يرسم ديكور فيلم ما (الرحلة، الجزء الرابع، ص 218).

51- فيما يتعلّق بالأطعمة والأشربة، في رحلة ابن بطّوطة، انظر: Ibn Ḫamīd al-Ḫamīd 2011.

52- انظر- على سبيل المثال- الحديث المشهور عن الأرملة الهندية التي تحرق نفسها بالنار، ويذكر ابن بطّوطة المشهد بالكلمات الآتية: "وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال... وصهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار، فلا تتخلّلها الشمس، فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنّم، أعاذنا الله منها" (الرحلة، الجزء الثالث، ص 100).

53- جدير بالملاحظة شعور الرحّالة بالأسف والسخط على انتهاك الشريعة. انظر- على سبيل المثال- قوله في بداءة الرحلة، وهو في مدينة مونية المصرية: "دخلت يومًا الحمام فرأيت الناس بها لا يستترون فعَظُم ذلك عَليَّ، وأتيت والي المدينة فأعلمته بذلك، وأمر بإحضار المكترين للحمامات، وكتب عليهم العقود أنه متى دخل أحد الحمّام دون ميزر فإنهم يؤاخَذون على ذلك، واشتدّ عليهم أعظم الاشتداد" (الرحلة، الجزء الأول، ص 225)، وانظر- كذلك- رحلة ابن بطّوطة إلى مدينة كولم في جنوب الهند، وهو يكتري رجلًا من المسلمين يساعده لحمل أغراضه، ويقول عنه: "كان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا، ويعربد عليَّ فيزيد تغيُّر خاطري!" (الرحلة، الجزء الرابع، ص 48).

54- على سبيل المثال، لا يصف ابن بطّوطة قصر الحمراء الشهير، خلال زيارته لمدينة غرناطة الأندلسية (الرحلة، الجزء الرابع، ص 220-229).

55- الرحلة، الجزء الأوَّل، ص 423.

56- الرحلة، الجزء الرابع، ص 60.

57- الرحلة، الجزء الرابع، ص 61.

58- الرحلة، الجزء الأوَّل، ص 264.

59- الرحلة، الجزء الأوَّل، ص 355.

60- ربَّما لم يرُزْ ابن بطّوطة الأهرام المصرية، إذ لم يذكر إلَّا واحدة منها، ويصفها بالكلمات الآتية: "وهي بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السموّ، مستدير، متَّسع الأسفل ضيِّق الأعلى، كالشكل المخروط" (الرحلة، الجزء الأول، ص 210).

61- الرحلة، الجزء الثاني، ص 128.

(62) Dunn 2005:176.

(63) Gabrieli 1961:XIV.

ببليوغرافيا

1. رحلة ابن بطّوطة الكاملة وترجماتها، بكاملها، إلى اللّغات الأوروبية الرئيسة:

al-Tāzī ‹Abd al-Hādī, Riḥla Ibn Baṭṭūṭa, Maṭbū'āt Akādīmiyya al-Mamlika al-Maghribiyya, Rabat, 5 ,1997 voll

. الترجمات إلى الفرنسية:

Charles-Dominique P. (eds) Voyageurs arabes. Ibn Faḍlān, Ibn Jubayr, Ibn Baṭṭūṭa et un auteur anonyme, Gallimard, Paris, 1995, pp. 1050-369

Defrémery Ch., Sanguinetti B. R. (ed), Voyages d›Ibn Batoutah, Imprimerie Impériale, Paris, 4 ,58-1853 vol

Yerasimos S. (ed); Defrémery Ch., Sanguinetti B. R. (tr), Ibn

Orientální. Journal of the Czechoslovak Institute, vol. 1962) 30), Praga, pp. 86-409

Husayn A. M., The Rehla of Ibn Baṭṭūṭa (India, Maldive Islands and Ceylon), Oriental Institute, Baroda, 1953) 1976)

Ibn Ḥamīd al-Ḥamīd, ‘Abd al-‘Azīz, Ibn Baṭṭūṭa wa-ǧuhūduhu al-luġawiyya wa-al-ǧuġrāfiyya. Alfāẓ al-aṭ‘ima wa-al-ašriba unmūdağiyyan, Dār al-Suwīdī li-al-našr wa-al-tawzi‘, Abū Ẓaby, 2011

Ibn Khaldūn, Muqaddima, ed. Quatremère É. M., Maktabat Lubnān, Beirut, 1992 (I ed. 3 ,(1858 voll.

Kilito A. F., L’autore e i suoi doppi. Saggio sulla cultura araba classica, Einaudi, Torino, 1988 (I ed. fr L’Auteur et ses doubles: essai sur la culture arabe classique, Le Seuil, Paris, 1985)

Mackintosh-Smith T., La strada di Tangeri. Alla ricerca dello splendore perduto dell’Islam sulle tracce di un viaggiatore medievale, Rizzoli, Milano, 2002 (I ed. ingl. Travels with a Tangerine: From Morocco to Turkey in the Footsts of Islam’s Greatest Traveler, John Murray Publishers, London, 2001)

al-Maqrizi Taqī al-Dīn, Kitāb al-mawā ´iẓ wa-l-í´tibār bi-dikr al-ḫuṭaṭ wa-l-ātār, ed. U. Bouriant, Description topographique et historique de l’Égypte, Ernest Leroux 1899

al-Muqaddasi, Aḥsan al-taqāsīm fī ma´rifa al-aqālīm, ed. M. J. De Goeje, Brill, Leiden, 2014 (I ed. 1887)

Marconi S., Reti mediterranee, Gamberetti Editore, Roma, 2003

Miguel A., La géographie humaine du monde musulman, Mouton, Paris-La Haye, 1967

Miguel A., L’Islam et sa civilisation, VIIe-XXe siècle, Colin, Paris, 1968

El Moudden A., “The ambivalence of rihla: community integration and self-definition in Moroccan travel accounts, 1800-1300”, in Eickelman, D. F. e Piscatori, J., 1990, pp. 84-69

Pétré-Grenouilleau O., Les traites négrières. Essai d›histoire globale, Gallimard, Paris, 2004

Rivalta M., Tresso C. M., “Ibn Baṭṭūṭa: sana e robusta costituzione o divina ispirazione?”, in Mengozzi A., 2006, pp. 716-711

Sezgin, F. (a cura di), Studies on Ibn Baṭṭūṭa, in “Islamic Geography”, Institute for the History of Arabic-Islamic Science at the Johann Wolfgang Goethe University, Frankfurt am Main, voll. 83-180 1994))

al-Tāzī ‘Abd al-Hādī, Ibn Baṭṭūṭa amīr al-raḥḥāla, al-Dār al-miṣriyya al-lubnāniyya, al-Qāhira, 2002

Yule, H., Cathay and the way thither, being a collection of medieval notices of China, translated and edited by Colonel Sir Henry Yule (Cordier H. ed), Hakluyt Society, London, 4 ,16-1913 voll.

Baṭṭūṭa, Voyages, La Découverte, Paris, 1997 (I ed. 3 ,(1982 vol

.الترجمات إلى الإنجليزية:

Gibb H. A. R. (ed), The travels of Ibn Baṭṭūṭa, A. D. 1354-1325, Cambridge University Press (Hakluyt Society), Cambridge, 71-1958, voll. I-III

Gibb H. A. R., Beckingham C. F. (eds), The travels of Ibn Baṭṭūṭa, Cambridge University Press(Hakluyt Society), Cambridge, 1994, vol. IV

.الترجمات إلى الإيطالية:

2006 ,Tresso C. M. (ed), Ibn Baṭṭūṭa, I viaggi, Einaudi, Torino

.الترجمات إلى الإسبانية:

Fanjul S., Arbos F. (eds), Ibn Baṭṭūṭa, A través del Islam, Alianza Editorial, Madrid, 1993 (I ed. 1987)

.الترجمات إلى الألمانية:

GrÜn H. J. (ed), Die Reisen des Ibn Battuta, Verlag, MÜnchen, 2 ,2007 voll.

2. الكتب والمقالات المذكورة في المقال:

al-‘Asqalānī, Ibn Ḥağar, Al-durar al-kāmina fī a‘yān al-mi’a al-tāmina, various eds., 4 vols, Hyderabad, 31-1929

Borbone P. G., Storia di Mar Yahballaha e di Rabban Sauma, Zamorani, Torino, 2000

Borbone P. G., Mengozzi A., Tosco M. (eds.), Loquentes linguis, Harrassowitz, Wiesbaden, 2006

Borsch S. J., The Black Death in Egypt and England, University of Texas Press, Austin, 2005

Cicerone, M. T., De oratore, eds Li Causi P., Marino R., Formisano M., Dell›Orso, Torino, 2015

De Slane M. G., Voyage dans le Soudan, par Ibn Batouta, traduit sur le manuscrits de la Bibliothèque du roi, in Sezgin F. (ed) 1994, pp. 132-73 (I ed in Journal Asiatique, march 1843, pp. 246-181)

Dunn R. E., Gli straordinari viaggi di Ibn Baṭṭūṭa, Garzanti, Milano, 2005 (I ed ingl The Adventures of Ibn Battuta, a Muslim Traveler of the 14th Century, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, California, 1986)

Eickelman D. F., Piscatori J. (eds.), Muslim Travellers, Routledge, London, 1990

Gabrieli F. (ed.), I viaggi di Ibn Baṭṭūṭa, Sansoni, Firenze, 1961

Gibb H. A. R., Ibn Baṭṭūṭa: Travels in Asia and Africa 1354-1325, Low Price Publications, Delhi, 1929

al-Ğarrāḥ N. (ed.), Raḥḥāla ‘arab wa-muslimūn. Ibn Baṭṭūṭa, al-faḍā’ al-asiyawī, al-šarq ufqan, Dār al-Suwīdī li-al-našr wa-al-tawzi‘, Abū Ẓaby, 2011

Hrbek I., “The chronology of Ibn Baṭṭūṭa’s travels”, in Archiv